جذور الاسلام السياسي في فلسطين

عوض خليل

انطوت عملية تكوّن الفكر السياسي، والاجتماعي، والثقافي، الحديث في المنطقة العربية، وضمنها فلسطين، على العناصر الاولى لتشكّل الاسلام السياسي. فقبل ان يبلغ الاسلام السياسي نسقه الفكري، والسياسي، والتنظيمي، بتأسيس «جماعة الاخوان المسلمين» في مصر، سنة ١٩٢٨، كان هذا التيار يتبلور بالتدريج كأحد التيارات الرئيسة التي انبثقت من فكر حركة «النهضة».

وعلى الرغم من ان بداية نشوء فكر النهضة قد جاءت تحت الحاح الحاجة الى التطوير والتحديث التي أخذ بعض الاوساط الاقطاعية الحاكمة في الولايات العثمانية يتحسّسها، فان هذا الفكر عكس طبيعة التحوّلات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، التي أخذت المنطقة تعيشها منذ بدأت تتأهّب للوقوف على عتبة عهد طويل، وبطيء، ومتدرج، من النمو الرأسمالي. وبذلك، جاء هذا الفكر معبّراً عن أماني وتطلّعات الطبقة البورجوازية التي كانت قيد التكوّن والنشوء، والتي كانت ترمي، في سياق نموّها، الى التغيير في النظام الاجتماعي القائم.

لكن الرأسمالية التي بدأت تشق طريقها في منطقتنا، في وقت أضحت في الغرب نظاماً اقتصادياً عالمياً يمارس غزوه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والثقافي في شتى بقاع المعمورة، لم يكن في استطاعتها ان تكون تكراراً لنشأة الرأسمالية في الغرب وتطوّرها، ولا الافلات من نطاق سيطرتها. وكان «قدرها»، الذي لا فكاك منه، ان تبني اقتصادها، تدريجياً، على هامش السوق الرأسمالية، وفي مجال الصناعات الخفيفة من دون قاعدة متينة في الريف. بل انه حتى عندما بلغت الرأسمالية في بعض دول منطقتنا أقصى درجات الرأسمالية الكبيرة، فقد ظلّت تحيط بها أوضاع اجتماعية من علاقات انتاجية سابقة على الرأسمالية، وأشكال من الرأسمالية البدائية، والانتاج السلعي الصغير، الخ.

تلك الاوضاع والأحوال التي صاحبت نشأة، وتطوّر، الطبقة الرأسمالية في منطقتنا، وأثّرت تأثيراً هائلاً في طبيعتها، جعلت فكر النهضة، الذي رفعه رموزها ومفكّروها، يحمل الاشكاليات والتناقضات والتشوّهات ذاتها التي اتّسمت الطبقة بها. فكان لهذا الفكر اتجاهاته وأشكاله وظلاله وتنكّراته النابعة من علاقات الاستيعاب والاستفادة والتقارب مع الايديولوجيات البورجوازية في الغرب. وكما هو شأن تعايش الرأسمالية في منطقتنا مع علاقات انتاج ما قبل الرأسمالية، كان فكرها، بكل اتجاهاته وتلاوينه، يحمل الخاصية عينها، تقريباً، في انه جاء فكراً توافقياً؛ فكان، وهو ينقل ثقافة «التنوير» الاوروبية مثلاً، يدعو الى عدم تمثّل هذه الثقافة، وخصوصاً في جانبها العلماني، الداعي الى تأسيس مجتمع لا يستند الى أسس دينية، وانما الى اسس مدنية، انطلاقاً من ان المجتمع هو من صنع الانسان نفسه. ولقد كان من الطبيعي لهذا التكوّن في فكر النهضة ان يحفل بعناصر الصدام